

مستويات حضور الآخر في الأدب الجزائري القديم

د. العزوني فتيحة، قسم اللغة والأدب العربي،
جامعة وهران1، أحمد بن بلة.

Abstract: The Colonial policy in North Africa since the Roman invasion to the French domination¹ seemed to be united in terms of visions and goals. In order to revive all his awful plans, several means of violence and destruction were undertaken, including different methods like taking over the lands and clearing the nation's privacy. However, one might note that colonialism played a chief role in shaping our existential, cultural and intellectual personality. The need to know the African Ego and the world around depends largely on a careful knowledge of the Other. Thus, what is often remarkable is the Ego which is appears in several literary works as grow stronger in light of its dealings with the Other and based on its evaluation of the other, it evaluates her Ego. At this point, one might explore the ideological relationship that links the African Ego with the outside Other revealing their positive and negative interactions.

As a matter of fact, the present research paper sheds light on several aspects related to the course of intercultural dialogue as it highlights a typical perspective that of the Ego and the Other, revealing the salient position of the Algerian intelligentsia towards the Ego, and the Other's attitude towards the Ego. Last but not least, the study will be based on three literary works, they are as follows: The Jugurthine War by Salutts, The Golden Ass by Apuleiu, and St Augustine's Confessions.

المخلص: ظل المشروع الاستعماري في شمال إفريقيا منذ السيطرة الرومانية إلى الهيمنة الفرنسية متوحدا في الرؤى والأهداف. وقصد إنعاش مخططاته استخدم جميع وسائل الدمار والعنف وما ينضوي تحتهما من أساليب الاستياء على الأرض ومحو الخصوصية، لكن في مقابل ذلك ينبغي الاعتراف بالدور الكبير الذي لعبه هذا المشروع في رسم ملامحنا الشخصية، الوجودية، الفكرية والحضارية. إن الحاجة إلى معرفة الأنا الإفريقية المغلوبة والعالم المحيط بها تعتمد على معرفة الآخر الغالب والاقتراب منه بإحدى الكيفيات، لذا نلاحظ أن هذه الأنا في الكثير من الأعمال الأدبية تتقوى في ضوء تعاملها مع الآخر الخارجي. وبناء على تقييمها للآخر تقيم أناها. هنا تتكشف طبيعة العلاقة الإيديولوجية التي تجمع الأنا الإفريقي بالآخر، ومدى تفاعلها سلبا أو إيجابا.

وستتمحور أغلب إشكالات هذه الدراسة في مجرى حوار الثقافات وخاصة ما يتصل بمنظور الأنا إزاء الآخر للكشف على موقف الأنتلجنسيا الجزائرية حيال الآخر وموقف الآخر من الأنا. واشتغالنا سيكون على

نصوص ثلاثة اخترناها أن تكون على التوالي: - الحمار الذهبي لأبوليوس - الاعترافات لأوغسطين - حرب
يوغرة لسالوسيت.

مهاده تاريخي:

التاريخ أساس حياة الأمم، وهو يعلن كما هو معلوم عن بدايته بالكتابة. لكن ما تزال
بدايات التاريخ في إفريقيا الشمالية محل نقاش، إذ لم يفصل الباحثون في إشكالاته إلى يومنا هذا.
وذلك نظرا لأن المدونة المكتوبة عن هذه المرحلة لم تصلنا كاملة، وأمام هذا الوضع يكتب
الباحث بالحفريات المتعلقة بالتاريخ القديم لشمال إفريقيا¹.

كان شمال إفريقيا خاصة "الجزائر الشرقية" بوابة بلاد البربر المفتوحة على
الحضارات الشرقية، تشهد على ذلك العلاقات المبكرة التي عقدها مع صقلية، مالطة
إيطاليا سردينيا.... عبر هذه الحدود تكون قد دخلت العناصر الأولى لحضارة متوسطية من
أصول شرقية وغربية².

قامت في شمال إفريقيا دولتان هما المملكة الماسيلية (148 ق.م - 203 ق.م) التي
تشغل الأقاليم الممتدة من القطر القرطاجي إلى المنطقة السيرية، أي أنها مطابقة للبربرية
الشرقية تقريبا. وقد عرفت ازدهارا على يد "ماسينيسا". أما المملكة الثانية هي الماسيلية
(230 ق.م - 203 ق.م) المرتبطة باسم "سيفاكس"، فهي التي تشغل باقي الجزائر الحالية
وجزاء من المغرب الشرقي إلى وادي ملوية.

ويخبرنا "بليوس" أن مهد القوة الماسيلية هو المنطقة الوهرانية وما يجاورها
من المغرب الشرقي.. كَوّن "سيفاكس" في المنطقة الغربية القوة التي سمحت له بلعب دور
تاريخي لا يستهان به، لكن يقول "بليوس" أن المور والماسيسيل تراجعوا قوتهم وأصبحوا
عبارة عن مجموعة عائلات لا غير في أعقاب الحروب. وجاءت حركة ارتداد من قبل
ماسينيسا وحلفاؤه، حيث وسّع سلطته لتصل إلى حدود المور.

وقد توسعت مملكة الماسيل في اتجاهين: نحو الغرب على حساب الماسيسيل
ونحو الشرق على حساب القرطاجيين وذلك على مراحل. توحدت هاتان المملكتان في عهد
الحاكم ماسينيسا حيث استولى "ماسينيسا" ما بين (202 ق.م - 203 ق.م) على مملكة
"سيفاكس". وحكم بلاد النوميديين من (203 ق.م إلى 148 ق.م).

بعد حكم النوميديين المرحلة التي تشكّل فيها مفهوم الدولة والمدنية، وبالتالي هي أكثر
الفترات استقرارا بعد مشروع توحيد بلاد البربر من قبل ماسينيسا، فهو أول أمازيغي دخل التاريخ
من بابه الواسع بفضل لعبت نوميديا دورا في التاريخ المتوسطي. في فترة حكمه انفتحت بلاد

¹ - (كامبيس، 2012: 5)

² - (كامبيس، 2012: 5)

البربر على التأثيرات الإغريقية، ليس فقط في المدن الساحلية ولكن في المدن الداخلية أيضا. نذكر أن هذه المملكة تمكنت من تطوير هياكلها مستفيدة من الحكم القرطاجي.¹

على الرغم من هذا التفوق المشهود تاريخيا لهذا الأقليم، إلا أن الأرشيف المدون لهذه المملكة ضائع، في هذا الصدد يؤكد غبريال كامبيس: قائلا: "نحن نرى أن ملكا حكم أكثر من نصف قرن وكان له صيت في كل بلدان حوض المتوسط يستحيل ألا تكون حياته وأعماله مدونة، مما يدعم فكرة أن أرشيف المملكة النوميديية يكون قد أحرق بحيث لم ينج منه شيئا"².

على قدر التصادم السياسي والعسكري الذي كان قائما بين الرومان والنوميدي عبر المحطات التاريخية انتعشت العلاقات الثقافية والدينية بين المنطقتين، بل أضحت التلاحم من أبرز معالم اللوحة الثقافية والفنية. لاسيما على عهد تولي ماسينيسا الحكم على المملكة النوميديية. لكن ما يمكن ملاحظته على مستوى آخر أن اللغة اللاتينية ظلت وقتا طويلا دون أن تحتل مكانة في الأوساط العامة والحياة اليومية، اقتصرت على المثقفين والطبقة الراقية. نذكر أنه ما بين القرنين الثاني والخامس قبل الميلاد تحولت نوميديا إلى مرآة للآتينية، وقد تكوّن المثقف النوميدي في الإمبراطورية الرومانية. وانفتح على حضارة العالم المتوسطي التي تعايش فيها ثقافات مختلفة. أهم الحواضر الثقافية الإفريقية مادور (مداوروش) مقاطعة تابعة لنوميديا الشرقية شهدت ميلاد أبوليوس المداوري. وتاغست (سوق أهراس) التي أنجبت كبير الفلاسفة والقديسين الأفارقة أوغسطين.³

جدلية الأنا والآخر:

ظل المشروع الاستعماري في شمال إفريقيا يتسم بالعنف والدمار وما ينضوي تحته من أساليب الاستيلاء على الأرض ومحو الخصوصية والتفرد، إلا أنه في مقابل ذلك ينبغي الاعتراف بالدور الكبير الذي لعبه هذا المشروع في رسم ملامح الأنا الوجودية، الثقافية والحضارية. ففي ظل التصادم المنتج للمعالم الحضارية تارة والمتسبب في الدمار تارة أخرى ظلت هذه الأنا تبحث عن تمظهر ما، أولا انطلاقا من وعيها بذاتها ووعيها بضرورة تحولها في ظل تأثيرات العالم الخارجية، ثانيا إدراكها لما يتسرب إليها من الآخر، يصبح إذن الاقتناع بضرورة التعاطي مع الآخر ضمانا لاستمرارية الذات ومسيرة نحو البحث عن آليات التمثيل كبديل عن التوقع والانغلاق.

لكن ماهي محددات الأنا (Le moi) والآخر (L'autre) ؟

¹ - (طامر، 2007: 31).

² - (كامبيس، 2012: 5).

³ - (حفاوي، ب، 2016. 92. 93).

"الأنا هو العقل الشعوري وهو يتكون من المدركات الشعورية والذكريات والأفكار والوجدانات. إن الأنا مسؤول عن شعور المرء بهويته واستمراريته وهو من وجهة نظر الشخص ذاته يعتبر في مركز الشخصية"¹: أما الآخر فهو مفهوم غير نابع "من المعني بالأمر، بل إنه صادر عن الطرف المضاد، ومن ثمة فهو مفهوم فلسفي يعني مجموع السمات والمواقف المتوفرة عن الآخر"².

ونظرا للعلاقة الجدلية بين الأنا والآخر يصبح من العسير الحديث عن الآخر بمعزل عن الأنا، فأينما وجد الآخر فالأنا وعلى نحو بديهي تكون مقابل هذا الآخر، وعليه يتحول الآخر إلى مرآة يقرأ من خلالها الأنا ذاته. لأن تصور الذات لا ينفصل عن تصور الآخر والعكس صحيح، ومن ثمة فإن نفي الآخر هو بتر للذات.³

ومن التعريفات الحدائية التي صيغت للآخر أنه ذلك الدال على المختلف القابل للاكتشاف، فهو يختلف عن الأنا باتجاهاتها السيكلوجية والمرجعية كلها، ذلك أن الأنا نفي للآخر بالضرورة ووجود أحدهما يقتضي غياب الآخر، واللقاء بينهما لسبب من الأسباب يقتضي الحذر والتوجس خيفة من الطرف الآخر.

لقد اهتمت البحوث الخاصة بالآخر بالتركيز على المختلف من حيث العقيدة، العرق والحضارة بمعنى واسع، فالآخر لا يكون إلا بوجود ذلك الاختلاف بين الجماعات وتمايزها ولاسيما في مسألة الانتماء القومي والعقائدي الذي يظل من أكثر الانتماءات المؤدية إلى انقسام شعوب العالم في العصر الحديث على أسس قومية - عقائدية.

ينبغي أن نشير أن هذا الآخر يتحول بالنظر إلى طبيعة العلاقات بين الجماعات وبالنظر كذلك إلى المصالح الاقتصادية والسياسية، التي في ظلها قد يتحول العدو إلى صديق مثلما قد يغدو العدو صديقا.

وإذا سلمنا بأن ثمة تلازم بين مفهومي (الأنا) و(الآخر)، يصبح اشتغال الأنا يستدعي تلقائيا حضور الآخر، ذلك أن صورة الذات عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر لديها. فبدون معرفة الآخر عمليا يظل التعامل معه في حدود الصورة التي نراها أو نريدها أن تكون، حتى ولو كانت هذه الصورة غير مطابقة للواقع.⁴

إذا كانت الكتابة ظاهرة حضارية، يجوز لنا القول إن الكاتب الجزائري في مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي ومن خلال ما توافر لدينا من نصوص قادر على إنتاج الثقافة، لأن وجود مثل تلك النصوص دليل في حد ذاته على أن الأنتلجنسيا الأدبية الجزائرية قد

¹ - (شلتز، 1983: 11).

² - (المؤذن، 2002: 415، 416).

³ - (ليبب، 1999: 22).

⁴ - (الغصنفر، 2010-2011: 44).

انتزعت مكانتها الخاصة على الرغم من الغبن الاستعماري الذي كانت تعانيه تحت السلطة الرومانية. بل لا نغالي إذا قلنا أنه كان لديها من الإمكانيات ما يجعلها قادرة على خلق مسافة لتأمل التاريخ ونقد الذات ونقد الآخر.

في ضوء التصورات المعرفية التي طرحناها سابقا والمتعلقة أساسا بمسألة "الأنا والآخر" نتوخى اختراق نصوص أدبية جزائرية أو التي تمت إلى الأدب الجزائري بصلة والمرتبطة أساسا بمرحلة ما قبل الفتح الإسلامي -مراعين تقارب ظروف إنتاج هذه المدونات النثرية- بغرض استكشاف البنية الصراعية بين الآخر الغالب والأنا المغلوبة. وستصّب أغلب إشكالات الدراسة في مجرى حوار الثقافات وخاصة ما يمتّ بصلة إلى التمثيلات التي يتبلور من خلالها منظور الذات إزاء الآخر للكشف على موقف المثقف الجزائري حيال الآخر وموقف الآخر من الأنا. واشتغالنا سيكون على نصوص ثلاثة اخترناها أن تكون على التوالي: - الحمار الذهبي لأبوليوس، الاعترافات لأوغسطين. حرب يوغرطة لسالوسيت.

مسألة هذه المؤلفات ستكون في ضوء أسئلة جديدة تسعف على استكشاف مضمراتها ومقاصدها. مركزين على ما يميز هذه المتون من خصائص فنية وما تثيره من إشكالات مختلفة. ندرج في معالجتها في ضوء المستويات التالية:

- 1- تقديم النص من حيث جنسه ونوعه.
- 2- رصد بنياته مع التركيز على تفاعل الأصوات الإيديولوجية واختلاف مقاصدها وإيديولوجياتها.
- 3- إبراز الهوية القائمة بين منظومتين ثقافيتين وإيديولوجيتين متباينتين (الثقافة الناطقة والثقافة المنظور إليها).

الحمار الذهبي لأبوليوس:

ولد "لوكيوس أبوليوس" في القرن الثاني الميلاد حوالي (125م-170م) بمدينة مداوروش قرب مدينة سوق أهراس، من أهم مؤلفاته:

الحمار الذهبي أو التقمصات إلى جانب ديوانه "الأزاهير". ويعتبر مؤلفه "الحمار الذهبي" أول بادرة في كتابة الرواية العالمية.¹

¹ - (أبوليوس، 2001: 9-49).

يقوم نص "الحمار الذهبي" على التقطيع أو التشظي النصي والذي يتمظهر في صيغة مجزوءات حكائية، تستند الحكاية المركزية فيه إلى وحدات حكائية تشكل متواليات تنتشر إلى أحد عشر كتاب. المحكي فيها قدم بطريقة يتجاوز فيها الواقعي بالعجائبي نظرا لتعالق النص نصيا مع الأسطورة والخرافة والحكاية العجيبة التي منها استلهم تيمات، لذا فهو مستعص على الفهم.

يفيض السرد في رواية "الحمار الذهبي" عن الرحلة التي يقوم بها السارد نحو عوالم المجهول وينتهي سيلانه بالعودة إلى وطنه. على امتداد زمن الرحلة تتبدل الأمكنة والشخصيات وتتوالد الأحداث، الأمر الذي يضفي على هذا النص طابع المتعة والتشويق.

إن فكرة جمع الحكايات تقتضي حركة في الزمان والمكان وتغير في المواقع والأحداث. وهو الأمر الذي أسهم في تعدد أصوات الرواية، فبالإضافة لصوت السارد هناك أصوات شخصيات متوالدة تقوم بعملية الحكى، صادفها هذا السارد أثناء رحلته.

قام السارد أبوليوس بتحسين المكان الأول، إذ لم يكشف لنا أبعاده وتفاصيله. وقرر الانتقال إلى مكان آخر يكون مسرحا مناسباً للأحداث التي سردها لنا. وفي هذا التحول من مكان إلى آخر تكتشف الأنا الآخر. ولو ظلت في مكانها لما تسنى لها ذلك. هذه المواجهة تمت من خلال انخراط الذات في عوالم الآخر ومعايشة تجاربه. لكن كيف تم ذلك ؟

نلاحظ أن الأنا الساردة دخلت في علاقة اتصال مع الثقافة اليونانية من خلال توظيفها للخرافة اليونانية التي بها توشحت رواية الحمار الذهبي. فهذه الرواية مديونة للثقافة اليونانية. في الوقت نفسه تضع هذه الأنا فاصلا ما بينها وما بين الانحلال الخلقي الذي تشهده الحضارة الغربية على أيامها. لكن الأنا الساردة لم تتموقف هذا الموقف إلا بعد تواصلها مع هذه الحضارة في جانبها السلبي أي لدى تحولها إلى حمار.

إذن في الفضاء الجديد انخرط السارد في التجربة والممارسة وأصبح جزءا من اللعبة السردية بعد أن تحول إلى حمار. وأصبح ضمانا لترابط الحكايات، وتزامنا مع هذا البرنامج السردى غدا السارد متواجدا في مركز القصة ليتحول من عين ملتقطة إلى ذات فاعلة.

عندما تحوّل "أبوليوس" إلى حمار شعر بضياغ جوهر الذات الحقيقية، وخواء الحضارة الغربية من الجانب الروحي وانغماسها في الانحلال الأخلاقي، الأمر الذي عسر اندماجها في المجتمع الجديد. إنها عزلة روحية وليست عزلة ثقافية. حيث بدأ يفكر في كيفية تطهير أناه وتجديدها من خلال التشبث بالعقيدة.

يقول السارد لصديقه فوتيس: "فإني أطلب منك أن تستجيبى لرغبتى هذه، وأن ترينى سيدتك عندما تقوم بعمل من أعمالها السحرية".¹

السارد: "لم أر نفسي طائرا بل رأيت نفسي حمارا"¹.

¹ - (أبوليوس، 2001: 88).

إن الأنا الأهلي الإفريقي "السارد - لوكيوس أبوليوس" هو الملتقط المتأمل، قدّم أنه على أنها غريبة مكانيا من خلال الرحلة التجارية التي أوهم القارئ أنه يتقصدها قصدا. والغربة هنا لا تعني غربة المكان، إنما غربة النفس والفكر والروح. لمعرفة نفسه كان عليه أن يتعرف على الآخر عن قرب. في هذا المنحى يقول سارتر: "وجود الآخر شرط لوجودي وشرط لمعرفتي لنفسي وعلى ذلك يصبح اكتشافي لدواخلي اكتشافا للآخر".²

إن الحاجة إلى معرفة الأنا والعالم المحيط بها تعتمد على معرفة الآخر والاقتراب منه بإحدى الكيفيات، لذا نلاحظ أن السارد يتقوى بأناه للتعامل مع الآخر الخارجي. كما نلفيه يقيم الآخر وبناء على هذا التقييم يقيم أنه، ذلك أن الهوية تحتاج إلى آخر للتمييز إزاءه. هنا تنكشف طبيعة العلاقة الإيديولوجية التي تجمع الأنا بالآخر، ومدى تفاعلها سلبا أو إيجابا.

يتكرس الفعل التواصل بين العنصر الأمازيغي ممثلا في السارد -الكاتب والثقافة اليونانية من خلال الإرث الفني من أساطير وخرافات التي وشح بها عمله الروائي "الحمار الذهبي". تلمح الكتابة هنا إلى أن انصهار الثقافات مسألة أكثر من ضرورية على مستوى الكتابة الأدبية على الأقل، لكن هناك تواصل من نوع آخر والذي تجسّد لدى تجريب السارد للخطة السحرية على جسده ثم تحوله إلى حمار. لقد جرب السارد أن يكون آخراً لدى انقسام الذات على نفسها، غير أنه لم يتوافق مع أنه بوصفها آخراً. هنا نستحضر قول جوليا كريستيفا التي ترى "أن الآخر الغريب يسكننا على شكل غريب".³

عكس أبوليوس جوهر الكينونة البربرية، حيث لم يكن منطويا على ذاته عندما سمح لأناه أن تتفاعل مع ثقافات أجنبية مختلفة عن ثقافته الأم، فكان الداعم لجانب من هذه الثقافة في جانبها الفني عندما اشتغل عليها ووظفها بل أحيائها وبعثها في شكل فني روائي خلد الخرافة اليونانية. في مقابل موقفه موقفا سلبيا من الحضارة الرومانية، حيث تعد رواية "الحمار الذهبي" قراءة نقدية ساخرة للمجتمع الروماني على الصعيد الاجتماعي. فهذه الإمبراطورية وعلى النحو الذي تمظهرت به في النص، عائمة في الرداءة والزيف، ذاهبة نحو الانحلال المعرفي والروحي لا محالة. والرواية في رحلتها الفانطاستيكية رغم طابعها الخرافي تعد نصا واقعيًا ينتقد العقل الظلامي ويسفه سلوكات السحرة وانحطاط الأخلاق، بل هي مؤشر على إعلان انهيار الإمبراطورية الرومانية وإفلاسها أخلاقيا.

عظفا على ما سبق يحق لنا القول إن الرواية جاءت لتسد ذلك الفراغ في الحضارة الغربية المادية وتخلق التوازن ما بين الروح والمادة، لقد وضع السارد يده على الخواء الروحي لهذه الحضارة فانتشل نفسه منها أولا بتطهره، ثانيا بعودته من حيث أتى. وفي الملفات التالية ما يسند تخريجنا هذا :

¹ - (أبوليوس، 2001: 91).

² - (عن الغضنفر، 2010-2011: 39).

³ - (عن الغضنفر، 2010-2011: 39).

: "وإنما وقعت في فترة الشباب الفج بين أحضان اللذة الوضيعة".¹

: "فبدأت رحلتي إلى وطني بعد أن تأخرت كثيرا..."²

: "رجل مداوري فقير جدا".³

إن تواصل الأنا مع الآخر تمّ على عدة مستويات أولها: المستوى اللغوي وفعل الكتابة بأساسية اللغة اللاتينية، ثانياها الاستثمار في الجانب الروحي أمام طغيان الحضارة المادية. ثالثها توظيف الإرث الفكري للثقافة اليوناني (أشهر الخرافات). لقد احتاج الكاتب إلى لغة الآخر بوصفها وسيلة للإفصاح عن هويته وعليه تدين أنا الكاتب ونصه بوجودهما لإسهام الأمم الأخرى من حيث الثقافة واللغة.

السارد: "أرجو أيها القارئ أن تعذرني إن أنا تعثرت في هذه اللغة الأجنبية حين لآخر".⁴

حتى تحقق الأنا نفسها وتقاوم اغترابها ينبغي لها أن تتنازل من أجل ألا تكون مجرد أداة موضوعية واجتماعية وأن تعمل في الوقت نفسه على أن تعلق على نفسها من خلال الخروج عن عزلتها واتحادها بالذوات الأخرى بالاتصالين الثقافي والروحي. وما يمكن الوقوف عليه من خلال هذا التحليل أن الأنا والآخر وإن تابذا سياسيا سيظلان يتفاعلا سلبا أو إيجابا بالنظر إلى علائق القوة التي تمنح الغلبة لطرف على حساب الطرف الآخر. على أن ذلك لا ينفي ما أثبتته مجموعة من الدراسات من أن لكل شعب ثقافته الخاصة.

- اعترافات القديس "أوغسطين" :

عاش القديس أوغسطين بين سنتي (354م-430م)، من أصل أمازيغي يلقب بالإفريقي، كتب "الاعترافات" قبل انبثاق الإسلام بقرنين ونصف، تتميز الاعترافات بشمولية المعرفة، طبعت هذه المونة مئات المرات وترجمت إلى عشرات اللغات، الترجمة التي نعتمد عليها نقلها من اللاتينية إلى العربية "ابراهيم الغربي" وراجعها "محمد الشاوش" صدرت عن المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، قرطاج، عام 2012.

تندرج الاعترافات تحت جنس السيرة الذاتية، فيها شكل من أشكال التطابق بين مؤلفها، ساردها والشخصية الرئيسية. توثيق هذه السيرة الذاتية جاء بالضمير المتكلم "أنا" هنا تحول الكاتب إلى سارد أي إلى علامة نصية وأصبحت الذات موضوعا للخطاب.

¹ - (أبوليوس، 2001: 272).

² - (أبوليوس، 2001: 242).

³ - (أبوليوس، 2001: 291).

⁴ - (أبوليوس، 2001: 41).

تعتبر السيرة الذاتية جنسا أدبيا يحتضن عددا من الأشكال السردية: منها اليوميات، المذكرات ، الرسالة، القصة ،....تستثمر السيرة الذاتية فن السرد مما ينحو بها نحو الأدبية.

تحتوي اعترافات أوغسطين على 13 كتاب:

- الكتاب الأول: مرحلة ما قبل الميلاد: وهو في رحم أمه، الميلاد، مرحلة الرضاعة، الطفولة الأولى، مرحلة التمدرس (استحضار هذه المراحل قائم على التأمل "السؤال عن أصل الروح مثلا"...)
- الكتاب الثاني: استرجاع ذكرياته في عمر 16 سنة (العلاقات غير المشروعة- السرقة التي كان يقترفها ..)
- الكتاب الثالث: تردده على قرطاج للتعلم ثم سرد مغامراته فيها. ازدهار النشاط المسرحي، وفاة والده.
- الكتاب الرابع: استرجاع ذكرياته من 19 سنة إلى 28 سنة (دراسته للخطابة- المشاركة في مسابقات الشعر - موت صديقه في ريعان شبابه).
- الكتاب الخامس: استرجاع ذكرياته وهو في سن 29 سنة فما فوق.
- الكتاب السادس: محاسبة الذات / ولوج عالم التدبير والقراءة.
- الكتاب السابع: استرجاع مسار حياته الشبابية.
- الكتاب الثامن: الطريق نحو الهداية.
- الكتاب التاسع: موت أمه – اعتناقه المسيحية.

هذه الكتب التسعة هي مشروع بحث عن الحقيقة. ونلاحظ أن الطفولة في الكتاب الأول هي الحلقة التي عنها تفرعت جميع الحكايات في الكتب المتوالية.

الكتب الأربعة المتبقية تتوطد فيها العلاقة ما بين الفلسفة والديانة المسيحية.

جعلت هذه السيرة الذاتية من الماضي منطلقا للسرد بقصد تحقيق التجربة الفردية وتوثيق تحولاتها صعودا في الزمن، إلى أن توقفت لدى استنفاد مبررات الحكي . علما أن الاعترافات تكون قد ألفت وبحسب المعطيات التاريخية والكاتب في سن السابعة والأربعين من عمره أي ما بين سنتي (397م-401م).

يقول أوغسطين في الاعترافات كاشفا منهجه في كتابة سيرته الذاتية: "أستدعي من تلك الصور ما أريد أن يحضرني، يأتي بعضا في الحال ، وبعضها أترقبه مدة أطول، وكأنه انتزع من أماكن أكثر عزلة وخفاء، أما بعضها الآخر فيندفع حشودا بينما نطلب غيرها ونبحث عنها، نقفز إلى الصف الأول، وكأنها تقول "لعله دورنا نحن ...؟ وأطردها بيد قلبي من محيا ذاكرتي حتى تخرج الصورة التي أريدها من السحاب وتأتي أمام عيني من أعماق مخبئها، وبعضها يتقدم حالما يستدعي بكل يسر في صفوف منتظمة، ويترك

السابق منها المكان للآحق ، وفيما هي تفسح لها المجال تصطف جانبا حتى نتقدم ثانية بإذن مني، فذاك كل ما يحدث عندما أروي شيئا ما تذكره".¹

في ضوء معطيات الملفوظ السابق يبدو لنا مدى وعي الكاتب في عملية الاشتغال على مخزون الذاكرة وكيفية الانتقاء من هذا المخزون بما يتوافق والإستراتيجية التي يتقدها. وهو بذلك يكون من الأوائل الذين صاغوا ضوابط فن السيرة الذاتية.

تتميز إستراتيجية السرد في الاعترافات بالخطية وبالتصريح بذكر "الأنا"، إلى جانب تمركز الضمير "أنت". استعرض فيها الكاتب المنعطفات التي قطعها وهو يبحث عن الهداية، إذن الاعترافات مدونة شعورية وعقلية قامت عليها المرجعية الفكرية والروحية لأوغسطين التي تشربها من التلاحق الثقافي للحضارت في الشمال الإفريقي.

أما الكاتب اللثام في الاعترافات عن تجربته الحياتية المنغمسة في الإثم، وعلى وجه نقيص ركز على الجهد التطهيري والتصحيحي لبلوغ الهداية. البرنامج السردى لشخصية "أوغسطين" تميز بالازدواجية (أوغسطين المخطئ العاصي(الماضي) ≠ أوغسطين المهتدي المعتقد للمسيحية).

تتمظهر شخصية أوغسطين بوجهيها على مسار السرد بشكل تناوبي، حيث حضور وجه الشخصية الأول يتم تعضيده مباشرة بوجه الشخصية الثاني، نشير كذلك إلى أن المساحة النصية التي يحتكرها أوغسطين المهتدي تتمدد في مقابل تقلص حضور أوغسطين العاصي وذلك تساوفا مع مقصدية النص.

يخبرنا الكاتب في أكثر من موضع بأن والده اهتم بتنشئته خطابيا، في حين اهتمت والدته بتنشئته أخلاقيا. في هذا الصدد لم ينقطع الكاتب عن ذكر والدته، في حين جاء حضور الوالد باهتا على المستوى النصي، لا سيما وأنه توفي والكاتب في سن 17 سنة من عمره، وذلك تبعا للقرائن النصية. وكأن الموت يغيب الأب لصالح بروز الأم. انتهت سيرة الكاتب الذاتية في الباب التاسع بالكشف عن وفاة الوالدة "مونيكا". هنا يتوقف السرد السير ذاتي وتتعلق حكاياته في اللحظة التي غيب فيها الموت أمه.

نفترض أن هذه الإستراتيجية السردية تتماشى والمقصدية النصية، لا سيما وأن الكاتب ركز مليا على ابتهالات الوالدة وتضرعها لله، والتي دامت بحسب النص "مدة 14 سنة"، من أجل أن ينير درب ابنها أوغسطين بالهداية. حيث غادرت الحياة فترة وجيزة من اعتناق ابنها المسيحية ، وعليه تتحقق مقصدية النص.

بقي أن نشير إلى أن الشخصية المتمظهرة في الكتاب رقم: 10 إلى الكتاب رقم: 13 هي شخصية أوغسطين المتدينة المهتدية المتطهرة بالكتابة، والتي انطلقت من زمن الهداية نحو زمن المستقبل، وفي اعتقادنا أن هذه الشخصية لا تتكرر لوجهها الأول الذي

¹ - (أغسطين، 2012: 307).

تمظهرت به في الماضي نهائيا. فهي وإن تخلصت من معاصيها باهتدائها إلى طريق الله، إلا أنها استثمرت علمها الذي تلقته في "تاجسته"، "قرطاج" و"ميلانو" في مرحلة الشباب ونجد في اقتران الفلسفة بالدين في شكل دروس على مدار أربعة كتب من المدونة (من الكتاب 10- إلى الكتاب 13) ما يسند تخريجنا هذا.

يقول أوغسطين: "وبما أنني حفظت لكثير من الفلاسفة وحفظت في ذاكرتي ما وثقوه..."¹

من مقاربتنا لهذه المدونة نفترض التخريجات التالية أن:

1- العلم دون عقيدة راسخة لا ينفع.

2- العقيدة مفتاح لاستثمار العلم.

وهذا ما وقفنا عليه لدى استثمار الكاتب لمشروع الهداية: في الكتب رقم: 10-11-12-13 على التوالي، لأننا نفترض أن الهداية هي المنطلق وليست المنتهى.

مما لاحظناه على هذه المدونة أن صاحبها ركز على مراحل تكونه الفكري والثقافي عبر فضاءات وإن بدت لنا متباعدة لكنه قلص لنا بينها المسافات عندما جعلنا نتنقل معه من تاغست إلى قرطاج إلى ميلانو. وقد مكّنه ترحاله عبر أمكنة متعددة في تكوين هويته المتعددة وجعله أنه بحكم التمازج الثقافي غير مشدودة إلى مكان بعينه وغير مقيدة بهوية ثابتة. وفي رحلته العلمية هذه اكتسب اللاتينية، الرياضيات، الفلسفة والأدب اليوناني والروماني... في الوقت نفسه ظل محتفظا بلقبه الذي يعتز به وهو "الإفريقي" وفي ذلك تشبث بالهوية واعتزاز بالانتماء إلى الأرض الإفريقية، وعليه يصبح نص الاعترافات نتيجة لثقافات متعددة تدخل مع بعضها البعض في حوار وتناغم.

إن الاعترافات تعقد ميثاقا سرديا بين صاحبها والقارئ، واصطناع ضمير الأنا يسمح بالنفاذ إلى حقيقة الموضوعات ويخول للكاتب البوح دون موارد وهو مالا نعتقد أنه من خصوصيات المجتمع الأمازيغي حيث أثبت المؤرخون من أمثال المسعودي وابن خلدون مدى تقارب العقليتين العربية والبربرية، وإذا سلمنا بذلك يصبح كشف الأسرار الذاتية والحديث عن الذات بالضمير المتكلم "أنا" من المحضورات التي تتجاوزها الثقافة المحلية. فضلا عن بنية السؤال التي يطفح بها نص الاعترافات مما يجعله مشدودا إلى ثقافة مغايرة تهتم بالسؤال بدل اهتمامها بالأجوبة الجاهزة.

إذن تنسج أنا الكاتب علاقة إيجابية مع الآخر من خلال عامل اللغة اللاتينية، توظيف البنية الاستفهامية، خلق الحوارية بينه وبين الخالق تارة وبينه وبين الأنا والأنت تارة أخرى.... وعليه فـ "الأنا" تتخذ مسافة إزاء ذاتها حرصا على تنقيتها من الشوائب التي علقت بها، مع إضفاء صفات جديدة عليها. من خلال الانزياح عن التمثلات الجماعية (المتواضع عليها) التي توارثتها عن أسلافها.

¹ - (أوغسطين ، 2012: 125).

فبتشربها لثقافة الآخر تكشف عن صورتها لتصبح امتدادا مباشرا له وجزءا من كيانه دون أن تتخلّى عن هويتها.

الحرب اليوغرطية لسالوسيت:

ولد كايوس سالوسيت كرييسوس S.G.Sallustus في جبال مقاطعة السباني Sabine بمدينة أمترتوم (سنة: 85 ق.م) وتوفي في روما (سنة: 36 ق.م). انتخب لمجلس الشيوخ سنة (48 ق.م) ثم عينه القائد يوليوس قيصر واليا مزودا بجميع السلطات، وأسندت إليه ولاية أفريقيا الجديدة Africa Nova، وهي نوميديا. بمقتل هذا الأخير اعتزل السياسة وانكب على التأليف.

يدور المسرود التاريخي في هذه الحكاية "الحرب اليوغرطية" حول القائد الأمازيغي يوغرطة ملك نوميديا، وما يتعلق بسيطرته على أجزاء المملكة، وأطوار حربه الضروس ضد الإمبراطورية الرومانية التي سيطرت على شمال إفريقيا.

منطلق الحكاية التركيز على الصراع الحاد بين أحفاد ماسينيسا بعد وفاة "مسييسيا" عام 118 ق.م. ويعدّ هذا المتن من أهم المصادر التاريخية التي اهتمت بالعائلة الأمازيغية الحاكمة في عهد الإمبراطورية الرومانية. فهو أول كتاب قديم يخص لشخصية نوميديّة. وهو يعتبر المصدر الأساسي للحرب التي خاضها هذا الملك النوميدي في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد". (حفناوي، 2016: 124) ومعطياته تعد المصدر الوحيد لتلك الأحداث التي وصلتنا تفاصيلها. حيث ظلت المصدر الوحيد للكتابات الأدبية والتاريخية التي اهتمت بشمال إفريقيا على عهد يوغرطة.

ينبغي أن نذكّر أن الأحداث التي يرويها سالوسيت في كتابه المذكور تكون قد وقعت قبل تاريخ تدوينها بما يزيد عن ستين عاما، مما يجعلنا نتساءل عن مصادره في الكتابة، لاسيما وأن نسبة شهود العيان الذي يفترض أن يستقي منها الكاتب الخبر، تتضاءل إلى حدّ الانعدام بالنظر إلى العامل الزمني. مما يفسح المجال له واسعا للتخمين والتلفيق. وربما هو الأمر الذي خول للكاتب إدراج عمله ضمن جنس القصة. يقول: "ولكن قبل أن أشرع في قصتي، أود الرجوع إلى الوراء قليلا لأذكر ببعض الوقائع التي تلقي ضوءا وتساعد على تفهم أحسن للأحداث التالية:....."¹

إن ضمير الأنا المفرد الطاعي على هذه الجملة يؤشر على أن ترتيب القصة التاريخية في هذا الكتاب سيتم وفق إرادة الكاتب "سالوسيت، مما سيجعل حضور البعد الذاتي قويا أمام تقلص الجانب الموضوعي إلى حدوده الدنيا. إذن أطروحة الكتاب ليست إلا انعكاسا لوتيرة الصراعات بين الأنا والآخر من خلال ظروف وملابسات مختلفة، حيث

¹ - (سالوسيت، 1997: 92).

تجلى التمثلات التي ظلت على حالها رغم تبدل الأزمنة وتبدل الظروف. ذلك أن "الأنا" الغربي ظلت على حالها منذ سالف الأزمنة وهي تتعاطى مع الآخر الإفريقي.

بالنظر إلى هيكل الكتاب نلاحظ تدرجا محكما في سرد الأحداث. حيث جاء مقسما إلى أربع عشرة فقرة، مهد باستهلال خص به الطبيعة البشرية وحبها للمجد والخلود. وأن العفة والشرف هما الوسام الذي يفترض أن يتطلع إليه كل البشر لأنه الأبقى.

انتقل بعدها إلى الخوض في شؤون مملكة نوميديا قبل الحرب.

ثم استعرض صفات بوغرطة وطروف تبنيه من طرف مكسيبا.

كما ركز على جغرافية وسكان إفريقيا.

وتعرض إلى مقدمات الحرب والحملات العسكرية على المنطقة.

وختم بتسليم يوغرطا للرومان أسيرا.

يحدد الكاتب موضوع الكتاب قائلا: "الحرب التي خاضها الشعب الروماني ضد يوغرطة ملك نوميديا".¹

نلاحظ في ضوء هذا الملفوظ عدم تكافؤ أقطاب الصراع: فالكترة التي يمثلها الشعب الروماني لا يمكن لها إلا أن تهزم القلة التي يمثلها يوغرطا فردا أعزلا. ثم إن الأزمة هي بين السلطة الرومانية والقائد الأمازيغي وليست بينه وبين الشعب الروماني؟ إذن ما الذي جعل الكاتب يصنع تلك المواجهة بهذه الكيفية؟ ربما المقصدية من ذلك أن تجد الحرب مبررا لها في أن الشعب الروماني هو الذي ينبذ هذا الحاكم الأمازيغي وهو الذي ينوي القضاء على هذا الخصم الشرس.

تتصف أخبار وراثة العرش النوميدي بعد ماسينييسا بملايسات ووعموض كبيرين، ومما عمق هذا الغموض خلو كتاب "حرب يوغرطة" من المعطيات المتعلقة بهذا الجانب، فـ"سالوستيوس كان يهدف إلى التشهير بالنبلاء الذين أساءوا إلى الاسم الروماني أكثر من اهتمامه بالحرب ذاتها، التي تعدّ في نظره وسيلة لا غاية، وبذلك حلّ في مؤلفه هذا التأثير العاطفي بدل الدقة وضحي بالحقيقة من أجل النظرة الخاصة - الصراع الطبقي- ثم إن سالوستيوس لم يركز اهتمامه على شؤون نوميديا، إلا ما يخدم الغرض من تأليفه الكتاب، الذي جاء خال من تفاصيل كثيرة حول نوميديا، كان بإمكان سالوستيوس أن يزودنا بها. أضف إلى ذلك نقص الدقة في تحديد المواقع الجغرافية، وكذا اكتفاؤه باستخدام القيمة التقريبية في التأريخ للأحداث".² (حفاوي، 2016: 124).

¹ - (سالوستيت، 1997: 92).

² - (سالوستيت، 1997: 92).

حاول السارد المؤرخ استنطاق شخصيات لا يعرفها ، فجاء حديثها وكأنها أطلعت على نواياها وفي ذلك تواشج بين الرواية والتاريخ. وبالنظر إلى توزيع الأصوات وكيفية تمظهرها ، يبدو المؤرخ متحيزا لشخصية اذربعل انسجاما مع منطق الحكاية، من خلال الخطبة الاستعطافية التي استغرقت ست صفحات. يخاطب فيها المتلفظ الشعب الروماني مذكرا إياه بصداقته وتحالفه مع الملوك النوميديين : يقول : "أيها الشيوخ المحترمون، إن والدي مسيسيبا قد أوصاني ساعة موته أن اعتبر نفسي وكيلا فحسب على مملكة نوميديا التي كنتم سادتها الشرعيين ...وقد كنت أطبق هذه التعاليم الأبوية بأمانة، فإذا بيوغرطة وهو أشد من حملتهم الأرض سرا ، يستهين بسلطتكم ويجردني أنا حفيد الشعب الروماني، ووارث صداقته – يجردني من مملكتي ومن جميع ما أملكه."¹

بعد هذه الخطبة الطويلة ينقل السارد جواب رسل يوغرطة في صيغة خطاب محول في بضعة أسطر. أي أن الكاتب منع يوغرطة من التمظهر وأسكنه بإقصاء صوته والإقرار بدلا منه صوت رسله. نشير إلى أن تركيز الكتابة على كواليس الأسرة الأمازيغية الحاكمة بما في ذلك الصراعات العائلية هو المحرك الأول لخيوط القصة. والقصة حبكت بصورة توحى للقارئ أن هذا الصراع الجيني هو الذي استدعى تدخل الرومان لفك النزاع بين الأخوة الأعداء.

يُعزّض الأنا الغربي هما كمبدأ للسيطرة التي تحدّد سلفا موقع الآخر الإفريقي الضعيف الذي يخفق دائما في تسبير شؤونه الداخلية. وذلك استجابة للأهداف الاستعمارية ومراعاة للمصالح والقيم الجديدة للمستعمر الروماني.

إن التوقع داخل إطار محدود يحول دون التعاطي مع المشكل الحقيقي الذي يمسّ الحضارات والثقافات فيما بينها، وهذا ما يستدعي استحضار البعد الإنساني لتتقّية الوعي الجماعي من الادعاءات والحساسيات المفرطة وتعزيز تحالف الحضارات والثقافات وتفاعلها إيجابا فيما يخدم مصالحها ومشاريعها المشتركة.

بيبلوغرافيا:

- أبوليوس، ل. 2001. الحمار الذهبي، ترجمة: أبو العيد دودو الجزائر: منشورات الاختلاف.
- أوغسطين، 2012. الاعترافات، ترجمة: ابراهيم الغربي، مراجعة: محمد الشاوش. قرطاج: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة.

- حفناوي، ب. 2016. طبقات الأدب النوميدي الإفريقي خمسة آلاف عام من الثقافة في الشمال الإفريقي. الجزائر: منشورات الاختلاف.
- سالوسيت، ك. 1997. حرب يوغرطة. ترجمة: محمد الهادي حارش. الجزائر : منشورات دحلب.
- شلتر، د. 1983. نظريات الشخصية، ترجمة: حمد علي الكربولي، وعبد الرحمن القيسي. بغداد: مطبعة جامعة بغداد
- الغضنفر، م. 2010-2011. "الذات بوصفها آخرًا في شعر المتنبي"، تعدد الرؤى – نظرات في النص العربي القديم، الأردن: دار مجدلاويل للنشر والتوزيع.
- طامر، أ. 2007. حفريات المسرح الجزائري، - المسرح النوميدي في العهد الروماني. الجزائر: دار الكتاب العربي
- كامبيس، غ. 2012. في أصول بلاد البربر- ماسينييسا أو بدايات التاريخ. ترجمة: العربي عقون. الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.
- لبيب، ط. 1999. صورة الآخر ناظرا ومنظورا إليه. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع.
- المؤذن، ع. 2002. الآخر في الرحلة المغربية، المغرب: مجلة المناهل ، العدد 66-67